الفصل الاول

﴿ في مبدإ علم الطب ﴾

خلق الانسان محفوفاً بالاخطار والمهالك معرَّضاً للتأثر بالفواعل الطبيعية مما يُحدث في بنيتهِ تغيراً تخرج بهِ عن خطة النظام القائم بحفظها وتدبيرها وغائها حريصاً على طلب النافع ودفع الضارّ مولعاً بالبقاء مجتهداً في صيانة نفسهِ من العوارض التي تطرأ عليه محمولاً بالطبع على التوجع والتألم منقاداً بالضرورة الى تجربة ما ظنهُ نافعاً لهُ فكان في مبدإ امرهِ طبيب نفسهِ ثمَّ لما كان اليفاً بالطبع مفطوراً على رقة العواطف والشفقة على المصابين والمتألمين صار بعد ذلك طبيب غيرهِ فمبدأ الطب اذاً الميل الغريزيُّ في الانسان الى مزاولة الوسائط العلاجية واستعمالها بمقتضى الشفقة والمناصحة وغايتهُ شفاء الادواء احياناً وتخفيف الآلام غالباً وتعزية المصاب دائماً

فبناءً عليه يكون علم الطب موجوداً مع خلق الانسان لانهُ ضروريٌّ في صلاحهِ فهو من شؤون الفطرة السليمة بدليل كونه

(1) Introduction du dictionaire de médecine et de thérapeutique médicale et chirurgicale, par E. Bouchut et A. Després

غريزياً في الحيوان على ماثبت بالمشاهدات الكثيرة فترى السنانير اذا حصل لها وجعٌ في بطونها لحست الزيت من المصابيح وكذا تأكل العشب في الربيع وليس هو من اغذيتها فاذا اكلتهُ تقيأت والثعلب اذا ولد وخاف على اولاده من الذئب جعل حول وجارهِ من بصل العنصل فان الذئب اذا مشى على بصل العنصل اعتلَّ وربما مات قال الرازي ان طائراً كثير الغذاء بالسمك يأخذ من ماء البحر بمنقارهِ ويحقن بهِ نفسهُ اذا احتبس بطنهُ فيخرج منهُ الثفل ومنهُ تعلم الناس الحقنة . ومن المقرر ان الانسان عوَّل في بدء امرهِ على التجربة لمداواة نفسهِ وعلاج ابناء جنسهِ وتوسع بذلك حتى صار مجموع النتائج المُحصَّلة من هذا القبيل على توالي الايام وتعاقب العصور علماً واسع المجال بعيد المنال بما ضُمَّ اليه من المجرَّبات وما استُنبط فيهِ من طرق الاستقراء والاستدلال[٢]

ولما كثر الناس وانتشروا على وجه البسيطة وتفرقوا قبائل وشعوباً دعت الضرورة الى تخصيص فئة من كل قوم للسيطرة والزعامة محافظةً على النظام وتقريراً لاصول السياسة فنشأت مبادئ

(١) مقدمه كتاب الجوهر النفيس فى شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازى

(٢) الطيب فى الطب والاطباء . للمؤلف

الرئاسة والانسان ميالٌ بالطبع الى الاستقلال لا ينقاد الى غيره الا مُكرَهاً مدفوعٌ بحكم الضرورة الى مغالبة الطواريء الطبيعية ومنازعة امثاله ليتسنى لهُ البقاء مفطوراً على حب السلطة بما يتهيأ لهُ من الوسائط فلا بدع ان اعتصمت هذه الفئة بالقوة لتأييد رئاستها وتعلقت باسباب الاستبداد لتمكين سلطتها واتخذت من خوارق الطبيعة اسباباً تخلب عقول البسطاء للانقياد لها والتسليم لاحكامها وليس شيء اقرب في اختلاب العقول وتقرير الصلة بين الخالق والمخلوق من صناعة الشفاء وعليه قولهم الطبيب واسطة بين الله والمرضى [٢] فاختص الطبُّ بالكُهَّان من قديم الزمان وكانوا يستنزلونهُ وحياً على زعمهم ويتخذونهُ ذريعةً لاثبات دعوى المعجزات ويتنبسون نوره من وراء الطبيعة. وكانت العامة يعظمونهم لما تخيَّلوا من كراماتهم ومقدرتهم التي تفوق طور العقول فانقادوا اليهم صاغرين ثم زاد وهمهم فألهوهم بعد موتهم وعبدوهم واقاموا لهم الهياكل والانصاب يقربون فيها القرابين والذبائح ويحرقون البخور ومن خالف الجمهور في اعتقاده عدُّوهُ مجرماً او كافراً فنكلوا بهِ تنكيلاً

(١) انظر مقدمه ابن خلدون

(٢) دعوة الاطباء صفحه ٣٢

وكانت الهياكل بمثابة بيوتٍ للمرضى يجتمعون اليها طلبا للشفآء وكان لسَدَنتها السلطة على النفوس والاجساد لا يُعارضون في ما يعملون لانهم اتخذوا الوحي والالهام دريئة لهم فكانوا يعالجون بالعقاقير على سبيل التجربة كما يتراءى لهم ويقيّدون ما تعلموهُ وجربوهُ على جدران الهياكل ليستفيد بهِ الخلف من ذريتهم لا يبيحون سرَّهُ لسواهم ولا يستعملهُ غيرهم . وهذا ما سماهُ جالينوس بطب الهياكل

وانحصر الطب في اليونان بآل اسقيليُس وهو عندهم إله الصحة والطب نشأ القول بألوهيتهِ في تساليا مسقط رأسه على ما ادّعوا ولهم بشأنهِ قصصٌ خرافية نعدُّها من اساطير الاولين . وكان لهُ في ارغوليد من إليريا هيكلٌ كبير اقيم بجانبه بناءٌ فسيحٌ للمرضى . وكذلك كان لهُ في اثينا هيكل عظيم في سفح الاكروبول الجنوبي حيث وجد في انقاضهِ ادراجٌ اثرية كُتب فيها شكر المرضى على شفآئهِ اياهم وصفات العلاج الذي استعمل لهم . واشتهرت ايضاً مدينة برغامس في آسيا الصغرى بعبادة اسقيليس وكانوا يصورونهُ قابضاً بيدهِ على عصى التفّت عليها حيّتان والى جانبه ديكٌ فالحية رمزٌ على تجدد الشباب لانها تسلخ في بعض فصول

Esculape, Æsculapius, ΑΣΚΛΗΠΙΟΣ voy. la Grande Encyclopédie

السنة . والعصى او الصولجان رمز على السلطة . وقال سقراط ان المرضى الذين كانوا ينالون منهُ نعمة الشفاء كانوا يقدمون لهُ ديكاً فالديك الذي يرى الى جانب صورته يشير الى تقدمة الشكر على حصول البرء . قال ابن القفّ ان اسقليبيس سمي متألهاً لانهُ رُفع الى السماء لشرف صناعته بعد ان نشرها في الارض واودعها في اهلهِ ولم يخرجها منهم فكان اهلهُ من بعدهِ يعاهدون بعضهم بعضاً ان لا يمكّنوا احداً خارجاً عنهم ان يقف على شيء من علم هذه الصناعة بل كانوا يعلّمونها لاولادهم وكانت المواضع التي يُعلّم فيها الطب ثلاثة احدها المدينة المعروفة برودُس والثاني مدينة قوس والثالث المدينة المعروفة بقيدوس . وان الاطباء الذين كانوا في هذه المدن الثلاث كانوا ايضاً من آل اسقليبيس . فلما مضى عدة قرون باد علم الطب من رودُس وانطفأ مصباحهُ من قيدوس ولم يبقَ من اهله في قوس الاّ نفر قليل فكادت هذه الصناعة يزول اسمها ويمحى رسمها لولا ان نبغ بقراط بن ارقليدس حفيد

(١) شرح فصول بقراط لابن القف : مجلد ضخم عليه خط المؤلف بالكلدانيه وفي اخره : بلغ قراءة على مصنفه فصح وكتبه العبد الفقير يعقوب النصراني الملكي المذهب لنفسه ووافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب عشيه الخميس ثالث عشر شهر رمضان سنه ٦٨٣ هـ

بقراط الاول من آل اسقيليبس فعُني بجمع اصول الطب من الهياكل وتدوينها في الصحف وتعليمها للطلبة . ولكي يخرج نفسهُ من الاثم بنسخ عهد السلف كتب ميثاقًا على كل من يتلقى هذه الصناعة هذه صورتهُ ,, اُقسم بالله رب الحياة والموت وخالق الشفآء وواهب الصحة . واُقسم باسقيليبس وباولياءِ الله جميعاً لأتخذنَّ المعلمين لي صناعة الطب بمنزلة ابآئي ابرُّ بهم واُواسيهم واُصلهم عند الحاجة بمالي . واعتبر ابنآءهم بمثابة اخوةٍ لي واعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا بدون اجرةٍ ولا شرط . واشرك بين اولادي واولاد معلميَّ وتلامذتي في جميع حقوق الصناعة . واحرص على نفع المرضى جهدي بما اتوصل اليه من التدبير . وامتنع عن اجراءِ كلما يضرُّ فلا اعطي دواءً يسقط الحمل ولا اشير بهِ . واحفظ نفسي على الطهارة والزكاة . واصون ذاتي بالعفاف . ولا ابيح بالاسرار التي اُؤتمن عليها ،،

وذكر الشيرازي شارح ارجوزة الشيخ الرئيس ترجمة بقراط فقال ,, تفسير لفظة بقراط ماسيك الارواح وانما كان اسمهُ الاول بقراطيس وكان سابع الاطباءِ المشهورين من اليونان تعلم العلم من ابيهِ وجدهِ وكانت صناعة الطب قبلهُ مخفيةً يدَّخرها من يتعلمها وكانت في اهل بيت واحدٍ وهو اول من أحدث البيمارستان

وسماهُ اخشندوكين ثم ان الذي جاء بعدهُ سماه بيمارستانًا لان لفظة البيمار المرضى وستان الموضع . قال جالينوس كان بقراط اماماً في علوم كثيرة منها علم النجوم والفلسفة والطبيعيات والالهيات ولم يكن لهُ رغبةٌ في الدنيا ولا في خدمة الملوك ولما سمع به ملك الفرس ازدشيرماه انفذ اليهِ مائة قنطار من الذهب على ان يتحوَّل اليه فامتنع وأبى ان يقبلها وقال

(١) وفى المقريزى اصدولين . « قال الجوهرى فى الصحاح» المارستان بيت المرضى معرب عن ابن السكيت . وذكر الاستاذ ابرهيم بن وصيف شاه فى كتاب اخبار مصر ان الملك مناقيوش بن اشمون احد ملوك القبط الاول بارض مصر اول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى . ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة اخميم وبنى سنتريه . وقال زاهد العلماء ابو سعيد منصور بن عيسى اول من اخترع المارستان واوجده بقراط ايوقليدس وذلك انه عمل بالقرب من داره فى موضع من بستان كان له موضعا مفرداً للمرضى . وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه اصدولين اى مجمع المرضى واول من بنى المارستان فى الاسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ه وجعل فى المارستان الاطباء واجرى لهم الارزاق واحر بحبس المجذومين واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق . ويطلق العامه الان اسم المارستان على دار المجانين ويخصون دار المرضى بالمستشفى وهو مولد وربما قالوا اسبتال وهو فى الاصل دار الضيافه . لاتينى

لست أبيع الفضيلة بالمال . وكان مقبلاً على الاشغال وكان قليل الاكل كثير الصوم يقول انا آكل لأعيش لا أعيش لآكل . قال بعض القدماء كان لبقراط ثمانون مصنفاً في الطب ولما مات خلف ابنين وبنتاً . قيل كانت اعلم بالطب من اخويها ومن اقوالهِ ,, كل مرض معروف السبب موجود الشفاء ،، ولد سنة ٤٦٠ ق م وتوفي على الارجح سنة ٣٧٧ ق م في لاريسا وقد اقيم لهُ نصب من حديد في اثينا كتب عليه ,, تذكارٌ لبقراط المحسن الينا مخلصنا ،، ونسب اليهِ الذين جاءوا بعدهُ مصنفات لم تكن لهُ وحكوا عنهُ قصصاً عجيبة ولا يبعد ان يكون النُسّاخ في عهد الدولة اللاغوسية قد نسبوا اليه من الكتب ما لفقوهُ طمعاً بالربح لان البطالسة كانوا يبذلون الاموال الطائلة في شراء الكتب النفيسة واستنساخها وترجمتها فكثر المحتالون حينئذٍ وراجت بضاعتهم في تزوير الكتب ونسبتها الى جهابذة المتقدمين

وقد عُني ليتراي اخيرًا بجمع مؤلفاته عن الاصل اليوناني وترجمها الى اللغة الفرنساوية في عشر مجلدات طبعت مع الاصل اليوناني في باريس سنة ١٨٣٩ ــ ٦١ [٢]

(1) Hippocrate, Grande Encyclopédie

(2) Littré: Œuvres d'hyppocrate (Paris, 1839-61) 10 vol in-8 avec le texte grec et trad. francaise